بيوتات الشعر من العصر الجاهلي حتى نهاية العصر الأموي
دراسة في آثار العوامل الوراثية والبيئية في الظاهرة الأدبية

إعـداد

هالة نمر علي سيد

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء وسيد المرسلين نبينا الكريم محمد، وعلى آله صحبه الطيبين الطاهرين .

وبعد،،،

فموضوع هذه الدراسة هو(بيوتات الشعر من العصر الجاهلي حتى نهاية العصر الأموي، دراسة في آثار العوامل الوراثية والبيئية في الظاهرة الأدبية).

ونقصد ب(بيت الشعر) ما تعارف عليه النقاد قديماً وحديثاً من توارث جذوة الشعر في البيت الواحد، من الآب إلى الأبناء والأحفاد ؛مما لخصه كل من أبي على الحسن بن رشيق القيرواني (ت 462هـ) عن (بيوتات الشعر والمعرقين فيه)(1) " وفؤاد سيزكين بحديثهما عن (أفراد بعض الأسر الشهيرة ممن نظموا الشعر) (2) وغيرهم (3) من أصحاب الدراسات الأدبية والنقدية، ومعاجم الشعراء، امتداداً للحركة العلمية التي شارك فيها بعض الباحثين، بجمع ما تناثر، وتبقى من أشعار القبائل العربية، في الجاهلية، والإسلام، وتحقيقه، ودراسته ...

ونقصد بالعوامل الوراثية، في نطاق هذه الدراسة (مدى ما توارثه الأبناء عن الآباء والأجداد من صفات نفسية وخلقية، وما ترتب عليها من خصائص موضوعية وفنية في نتاجهم الأدبي) والعوامل البيئية، في عرف هذا البحث، تعني مجموع العوامل الناتجة عن روح العصر الجاهلي وصدر الاسلام والعصر الأموي، وما ساد في هذه العصور من صراعات، وتقلبات، وتناقضات، سواء كان ذلك على المستوى القبليِّ ، أو الفكريِّ، أو الاجتماعيِّ، أو السياسيِّ، وانعكاس كل هذا علي صفحات أشعار هؤلاء الشعراء...

ونهدف من إعداد هذا البحث إلي معرفة مدى تأثير العوامل الوراثية في سلوك أبناء بعض أفراد (بيوتات الشعر من العصر الجاهلي حتى نهاية العصر الأموي، ومعرفة تأثير العوامل البيئية في مسيرة الحياة الأدبية لأبناء بعض أفراد (بيوتات الشعر . ..)

التمهيد

1- مفهوم الوراثة والبيئة وآثارهما في حياة الإنسان ونتاجه الأدبي :

تعد الوراثة من أهم الموضوعات التي تناولها الفلاسفة والعلماء، منذ مئات السنين، أي منذ عهد أرسطو وأفلاطون ، وقد توالت الدراسات العلمية، والأبحاث الخاصة بعلم الوراثة (في عام 1859- 1866م) اتضح للبشرية دور وأهمية الوراثة ... وذلك عندما قدم كل من دارون – 1809-1882)daronم، مصطلح الاصطفاء الطبيعي Natural Selection والعالم مندل 1822-1884) Mendelم) قوانين الوراثة ، حيث أعتقد دارون في كتابه "أصل الأنواع " أن الخصائص العقلية والجسمية على حدٍ سواء موروثة، وأنها تطورت لدى البشر لغرض الصراع من أجل البقاء ... في حين كانت لتجارب "مندل " في بحثه عن تهجين النباتات ... الأثر الكبير في معرفة كيفية اكتساب الفرد للصفات الوراثية المنقولة إليه من الأب والأب ، وحينها عُرف " مندل " بأنه الأب المؤسس لعلم الوراثة "(4)

وقد استفاد علماء البيوجيا من هاتين الدراستين ، فتزايد اهتمامهم بالوراثة ، وانضم إليهم علماء النفس ، فاتسع مفهوم الوراثة Genetic وأصبح يعرف بأنه " العلم الذي يدرس الموروثات (الجينات) والجينات التي نورثها ، وما ينتج عنها من تنوع (5)

وعلم النفس الوراثي Genetic psychology

هو (العلم الذي يدرس كيفية تأثير الجينات الوراثية على حياة الإنسان وسلوكه وشخصيته) (6)

أما البيئة Environment

فتعني "كلَّ العالم المائي والأرضي والجوي ... والناس على ظهر الأرض، ونظمهم الثقافية والسياسية، والتبادلات الاقتصادية التي تتحكم في علاقاتهم. (7)

كما تعرف البيئة بأنها " المنطقة التي تنتظم في حدودها حياة المجتمعات، وتتحدد

طبيعة هذه البيئة بما لها من خصائص فيزيقية معينة، وما توفره من موارد لإشباع حاجة الأفراد للبقاء، والنمو، والتكاثر، وما تمارسه من ضوابط لتوزيع الكائنات الحية داخل حدودها. (8)

وقد أثار موضوع الوراثة والبيئة جدلاً واسعاً في الأوساط العلمية، خاصة بين علماء النفس حول أيهما الأكثر تأثيراً في حياة الإنسان النفسية، فهذا فرويد Freud(1856-1939م) صاحب مدرسة التحليل النفسي ، يعطي للوراثة دوراً كبيراً في سيكولوجيا الإنسان . (9)

وسار على دربه Murray (1868 - 1955م) بقوله: للوراثة دور كامل وراء العمليات النفسية في حياة الفرد. (10)

أما آدلر Adler(1870 – 1939م)، فقد أعطى للوراثة والبيئة معاً الأهمية نفسها،(11) وكذلك هاينزايزنك Hanseysench (1916- 1997م) صاحب أشهر النظريات في السمات النفسية "أعطي أهمية كبيرة للوراثة إلي جانب البيئة في حياة الفرد النفسية (12)

ويمكن لنا أن نقول : إن هناك توافق إيجابي فعال بين الوراثة والبيئة في حياة الفرد النفسية، فالنشاط النفسي للإنسان يتحدد بالوراثة من جهة، وبالبيئة من جهة آخري.

وإذا تحدثنا عن النتاج الأدبي (الإبداع الشعري) فنجده بعيداً عن بؤرة اهتمام علماء الوراثة، ولعل أقدم من تحدث عن الوراثة، وأثرها على العبقرية، هو العالم الإنجليزي فرانسيس جالتون –Francis Galton (1822-1911م) في كتابه العبقرية الموروثة ، فقد قام بفحص عدد كبير من الرجال البارزين في انجلترا الذين يعدون مثالاً جيداً للقوى الوراثية، وهؤلاء الرجال اشتهروا في مجالات مختلفة، وهم: قضاة، ورجال دولة، وأدباء، ورجال علوم، وشعراء، وموسيقيون، ورسامون ، ورجال دين ، ومصارعون . (13)

وما يهمنا من هذه الدراسة بالإضافة إلى الوراثة، هو رصده لعدد من الأسر الشاعرة . (14)

وهذه الدراسة تكاد تكون الدراسة العلمية الوحيدة التي تناولت أثر الوراثة في الشعر، ولكن التناول تم بصورة عابرة ، كما أنها لم تتطرق إلي جانب البيئي ، فظاهرة الابداع الشعري لم تحظ بالدراسات العلمية الكافية، التي تستطيع من خلالها الحكم برد هذه الظاهرة إلى الوراثة أو البيئة، أم الاثنان معاً .

ولعل هذا من إحدى المهام الصعبة التي تواجه باحثي الأدب، وبما أن الشعر مرتبط بالإبداع، والإبداع نابع من القدرات العقلية والذكاء، فيمكن لنا أن نقيس الشعر على الذكاء، الذي حظي بالعديد من الدراسات العلمية، وقد اختلف العلماء في القدر الذي تشارك به الوراثة في الذكاء، فهناك (نظريات تنظر إلى الذكاء باعتباره قدرة تقوم على أساس بيولوجي، ..... هذه القدرة العامة الموروثة قد تطورت مع تطور الفرد والنوع ، وتُعرف هذه النظريات الذكاء بأنه القدرة على الاستفادة من الخبرة ومواءمة العالم المحيط، والمرونة أو القدرة على التعلم، ومن أصحاب هذا الاتجاه: دارون، وجالتون، ومكد وجال 1947)McDougall م – ...) وألفريد بينيه Alfred bient 1911 – 1857) م) فالذكاء هو أكثر وجه ملحوظ للشخصية والسلوك السويين .. ومن الظاهر أن هناك تأثيرا وراثيا واضحا على كل عنصر من عناصر الشخصية. ((15

وكعادة العلماء كانت هناك آراء معارضة ، فقد "ظهر تيار محايد حاول التوفيق بين الجانب الوراثي والبيئي في أثرهما على الذكاء، ومن أمثلة علماء هذا التيار، علم النفس الأمريكي هب Hebb(1904 – 1985 م) وعالم النفس السويسري الشهير جان بياجيه Piaget. J(1896–1980م). (16)

ومن هنا، تعددت الآراء حول دور الوراثة والبيئة ، فمنهم من جعل ظاهرة الوراثة هي الأساس والجوهر، الذي يستوعب البيئة والمجتمع " فصور الحياة وجوهرها الوراثة، هي التي تتطور وتتنامى، والعلاقة العضوية الديناميكية بالسياقات البيئية والإيكولوجية تدخلهما في الظاهرة، متجاوزة المقاربات(للجينات في مقابل البيئة) (17) وهناك من خفف من دور الوراثة ، ولكن لم ينكره ، " سوف يظل علم الوراثة يؤدي

دورا محوريا في مجال علوم الحياة، غير أن الدليل يقترح دوراً أقل اختزالية بكثير مع تزايد فهم العلماء للطبيعة الديناميكية للنظم البيولوجية ، والتفاعلات المعقدة بين الحمض النووي DNA والبروتينات والبيئة على جميع مستويات التنظيم داخل النظام . (18)

وحقاً فلقد صححت الدراسات العلمية العديدة ، التي أجريت حول الذكاء ، الكثير من المفاهيم الخاطئة ، ف(قد كان الذكاء يعد إلى عهد قريب وراثياً تماماً ، ومع أن النظرة إليه تطور بعض الشئ تبعا للبحوث التجريبية الحديثة ، فلا تزال تغلب فيه الناحية الوراثية . (19)

ومهما تعددت الآراء، فنحن مع القول بوجود تأثير الجانب الوراثي والبيئي على الذكاء " فالطفل يولد بعبقرية متوازنة ومواهب متكاملة وقابليات كامنة، وقدرات اجتماعية مثيرة، لا يظهر أي منها إلا عندما يمنح فرصا متكاملة للنمو، ولتصل بعدئذ إلى أعلى مستوياتها عند توفر الظروف البيئية المثلى . (20)

ومن هنا نقول : إن الوراثة والبيئة معاً هما وجهان لعملة واحدة " فلا وراثة بغير اكتساب، ولا اكتساب بغير وراثة، أي أن كل ما هو موروث لدينا – في الحاضر أو في المستقبل – أن ندخل عليه بعض التغيير، كما أن كل ما نكتسبه ، لابد أن يقوم على استعداد فطري لدينا، ومن هنا لا يمكن أن نعرف الشخصية دون أن نحسب في هذا التعريف حساباً للقوى البيئية والقوى الوراثية معا. (21)

ثم توالت الدراسات العلمية التجريبية، التي نستطيع أن نطمئن إلى الكثير من نتائجها، و" قد أثبتت كثير من الدراسات، التي أجريت على مجموعة كبيرة من الطلبة المبدعين، أن الوراثة لها دور كبير في إبداعهم ، ولكن دور الوراثة يعد أقل الأدوار بالمقارنة ببقية العوامل، التي تساعده على اكتساب هذه الخاصية الإنسانية التي لا تقدر بثمن . (22)

لذا فالإبداع الشعري لابد له من استعداد فطري ، وعوامل خارجية تصقله " فمن

الُمسلم به عند علماء الوراثة أن (الجينات) لا تورث المرء ملكة الشعر كاملة، وإنما تورث المرء الاستعداد الفني فتهيئه لأن يكون شاعراً ثم يأتي دور المحيط، والاكتساب ورحلة العمر الطويلة فتنمي هذا الموروث وتعمقه وتصقله . (23)

وفي ضوء ذلك يمكننا القول: إنَّ الإبداع الشعري لابد من التنامي، والتكامل، والتداخل بين عنصرين أساسيين، هما : عنصر الوراثة وعنصر البيئة .

أثر الوراثة والبيئة في شعراء الجاهلية والإسلام :

لقد أدرك العرب منذ وقت مبكر أهمية المحافظة على الأنساب، فألفت كتب كثيرة في ذكر أنساب القبائل العربية، قام فيها النسابون بجهد كبير في تتبع صلات القربي بين القبائل، التي تجمعهم في أصول بعينها، كما تتبعوا صلات الرحمن بين أفراد القبائل المختلفة، فهذا ابن حزم (ت456هـ)، يشير إلى عدد من القبائل، ومنها تميم المصرية، وقد تفرعت عنها عدد من القبائل مثل العنبر والُهجيم، وأسَيد، ومالك، والحارث، ودارم، ويربوع، وغيرها . (24)

وقيس عيلان تضم بطوناً عدة منها : غطفان، وذبيان، وعبس، وباهلة، وأشجع، وأنمار، وفَزَارة، وثَعلبة، وثقيف، وجُشم ، وسلول، وعُقَيل، والحَريش وقُشير – وجَعدة ، وغيرها . (25)

وتفرعت عن ربيعة عدد من القبائل، وهي ضُبَيعة وعنزة، والنمِر بن قاسِط ، وتَغِلب وعبد القَيس، وبكر، وشيبان، وغيرها. (26)

وقد سار على الدرب نفسه مؤرخو الأدب ونقاده ، فاهتموا بأنساب الشعراء بين القبائل المختلفة، فنجد ابن سلام (ت 231هـ) يتتبع ظاهرة تنقل الشعر بين القبائل، ويشير إلي أشهر شعرائها، بقوله "كان شعراء الجاهلية في ربيعة: أولهم المهلهل، والمرقشان، وسعد بن مالك وطرفة بن العبد، وعمرو بن قميئة، والحارث بن حلزة، والمتلمس، والأعشى، والمُسيب بن علس، ثم تحول الشعر في قيس، فمنهم : النابغة الذبياني – وهم يعدون زهير بن أبي سلمى من عبد الله بن غطفان، وابنه كعبا و لبيد، والنابغة الجعدي، والحطيئة، والشماخ وأخوة مُزَرد، وخِدَاش بن زهير، ثم آل ذلك

إلى تميم، فلم يزل فيهم إلى اليوم. (27)

كما أشار إلى وراثة بعض البيوتات للشعر، بقوله : " ولم يزل في ولد زهير شعر، ولم يتصل في ولد أحد من فحول الجاهلية، ما اتصل في ولد زهير، ولا في ولد أحد من الإسلاميين، ما اتصل في ولد جرير . (28)

وأشار المرزباني (ت 297هـ) عن أبي هفان (257هـ) إلى هذه الظاهرة بقوله :"محمد بن اسماعيل بن بسار شاعر، وأبوه إسماعيل شاعر ، وجده يسار شاعر ، وابنه عبيد الله بن محمد بن إسماعيل بن يسار شاعر . (29)

وقد تنبه عدد من الشعراء إلى ظاهرة وراثة الشعر، ومنهم بشامة بن الغدير، كما جاء في رواية الأصفهاني (ت 356هـ) وقوله :"فلما حضره الموت ، جعل يُقسم ماله في أهل بيته، وبين بني إخوته، فأتاه زهير ، فقال : يا خالاه ، لو قسمت لي من مالك ا فقال : والله يا ابن أختى ، لقد قسمتُ لك أفضل ذلك وأجزله، قال : وما هو ؟ قال : شعري ورثتنيه. (30)

وجاء ابن رشيق، ليلفت النظر إلى ظاهرة توارث الشعر في بعض البيوتات، من خلال الباب الذي عقده في كتابه (العمدة) واختار له عنوان)باب بيوتات الشعر والمُعرفين فيه) ، رصد فيه بعض الأمثلة لبيوتات الشعر في الجاهلية والإسلام ، ومنها " في الجاهلية بيت أبي سُلمى، وكان شاعراً، واسمه ربيعة، وكان ابنه زهير شاعراً، وله خؤولةُ في الشعر، خاله بشامة بن الغدير، وكان كعب" وبجير" ابنا زهير شاعرين، وجماعة من أبنائهما، وفي الإسلام بيت جرير، كان هو وأبوه عطية وجده الخطفي شعراء، وكان بنوه كلهم، وبنو بنيه شعراء ، قال أبو زياد الكلابي: رأيت باليمامة نوحاً، وبلالاً ابني جرير وهما يتسايران لهما جمال" وهيئة ، وقدر" عظيم ، وأشعر من باليمامة يومئذ حَجنَاء بن نوح بن جرير، وكان عقيل بن بلال شاعراً ، وعمارة ابنه شاعراً. (31)

وتابع مجدُ الدين النشابي (ت657هـ) ابن رشيق في دراسة هذه الظاهرة، من خلال الباب الذي عقده في كتابه (المذاكرة في ألقاب الشعراء) وعنوانه (أسماء المُعرقين من

الشعراء)، رصد فيه بعض الأمثلة للشعراء المُعرفين، ومنهم " فاطمة ويزيد ابنا سعيد بن عبد الرحمن بن حسان بن ثابت، وهؤلاء كُلهمُ شعراء مشهورون، سوى ثابت ، فإن شعره ضعيف . (32)

وإذا كانت ظاهرة الوراثة الشعرية، قد انطلقت من خلال جمع النقاد القدماء لأشعار القبائل، فإن ظاهرة البيئة وأثرها في الشعر، لا تخرج عن هذا الإطار، فقد قام عدد منهم، بجمع أشعار القبائل، على الأساس القبلي، أو المعطيات البيئية، ومن هؤلاء : أبو عمرو الشيباني (ت94- 206هـ)، وقد قال عنه ابنه أنه جمع شعر نيف وثمانين قبيلة (33)ومثل هذا القول ينطبق علي أبي سعيد السكري (ت 271 هـ) الذي جمع الكثير من أشعار القبائل، ومنها : أشعار بني ذُهل وأشعار بني شيبان، وأشعار بني أبي ربيعة، وأشعار يربوع، وأشعار طيئ .....إلى آخره . (34) ولا ننسى (ديوان الهُذليين)، (35) الذي حظي باهتمام العديد من الباحثين في مجال الشعر القبلي .

وهذا ابن سلام الجمحي في كتابه (طبقات فحول الشعراء)، (36) يقسم الشعراء إلى شعراء البادية وشعراء الحاضرة، أما ابن حبيب (ت245هـ) فقد تناول أشعار القبائل من الناحية الشكلية في كتابه مختلفا القبائل ومؤتلفه. (37)

وهذا الجهد الوافر من النقاد القدماء، جعلنا نتلمس الأثر البيئي في شعراء الجاهلية والإسلام، فالكشف عن هذا الأثر البيئي، يتضمن بالأساس "علاقة الكائن الحيِّ ببيئته وبالآخرين في وقت، ومكان محددين وبهذه العلاقة يكشف الإنسان عما يحيط به من أشياء، ومخلوقات بوصفها وسائل أو عوائق في سبيل حَريته. (38)

والشاعر بوصفه مبدع، شديد التأثر بالبيئة، لأنه لا يعيش في صومعة، فالأعمال الشعرية تتفاعل مع الوقائع الحضارية، والأحداث التاريخية، وأسرة حسان بن ثابت خير شاهد على هذا " فقد كان حسان نموذج المدِّاح " الجوال "; أما ابنه عبد الرحمن فَقُدر له أن يكون المجادل المَسُوق بتيار الأهاجي السياسية في عصره; أما سعيد فكان شاعراً غنائياً حزيناً Elegiaque ، وفي ثلاثة أجيال نستكشف كل التطور، الذي

أصاب الشعر في نطاق الحجاز، وهذا الوجه من وراثة الملكة رمز على الزمان، وما يحدثه من تغيرات. (39)

والآن، نأتي على ذكر بعض الأبيات الشعرية ليتبين من البيوتات الشعرية في العصرين الجاهلي والإسلامي، يمكن من خلالهم الكشف عن الأثر الوراثي والأثر البيئي..

ونبدأ بالعصر الجاهلي، وبيت زهير بن أبي سلمى، وهذه الأبيات الثلاثة التالية لأبي سلمى، وقوله:(40)

ولنا بقُدسٍ فالنقيعِ إلى اللوى رجَعٌ إذا لهَثَ السنِتي الوالِغُ

وادٍ قرارٌ ماؤُهُ ونَباتَهُ تَرعى المخاضُ به ووادٍ فارغُ

صُعُدٌ نُحَرِّزُ أهلَنا بفُروعهِ فيهِ لَنا حرزٌ وعَيَشٌ رافِغُ

وواضح – هنا – الأثر الوراثي المتمثل في سمة الاستعلاء بالنفس، فالشاعر يفتخر بما لقومه من جبال ووديان، ومراع خصبة، وأماكن آمنة للعيش، أما الأثر البيئي، فقد تمثل في الطبيعة فنجده يصف طبيعة البيئة البدوية، ومنازل مزينة وسط هذه البيئة التي تبدأ بقدس والنقيع، وتمتد إلى وادي اللوى العامر بالماء والخصب والنماء، وهذا الوادي هو الملاذ لمن تعثر به الحال في الصحراء، ولم يجد ماء، كما أنه مرعى خصب للإبل العشار، لما يتمتع به منى مياه وخضرة دائمة، بالإضافة إلى هذا وذاك ، فهو حصين منيع ، مما جعل أبناؤه ينعمون بالعيش في ظلاله .

ومثله قوله زهير بن أبي سلمى : (41)

هَلاّ سألْتِ بَني الصّيداءِ كُلّهُمُ بأيّ حَبْلٍ جِوَارٍ كُنتُ أمتَسِكُ

فَلَنْ يَقُولوا بحَبْلٍ واهنٍ خَلَقٍ لوْ كانَ قَوْمُكَ في أسبابِهِ هَلَكُوا

وغير خافٍ – في هذين البيتين – الأثر الوراثي في ظهور سمة الزهو والاستعلاء ،

والأثر البيئي المتمثل في المكانة العظيمة لقبيلة مزينة بين القبائل، فهي القوة الضاربة، والحماية لكل من يحتمي بها ومثل هذه السمة الوراثية والأثر البيئي السياسي نجدهم عند الحفيد كعب بن زهير، وقوله (42)

أَعَيَّرتَني عِزّاً عَزيزاً ومَعشَراً كِراماً بَنوا لِيَ المَجدَ في باذِخٍ أَشَم
هُمُ الأَصلُ مِنّي حَيثُ كُنتُ وَإِنَّني مِنَ المُزنِيّينَ المُصَفّينَ بِالكَرَم
هُمُ ضَرَبوكُم حينَ جُرتُم عَنِ الهُدى بِأَسيافِهِم حَتّى اِستَقَمتُم عَلى القِيَم
وَساقَتكَ مِنهُم عُصبَةٌ خِندَفِيَّةٌ فَما لَكَ فيهِم قَيدُ كَفٍّ وَلا قَدَم
هُمُ مَنَعوا حَزنَ الحِجازِ وَسَهلَهُ قَديماً وَهُم أَجلَوا أَباكَ عَنِ الحَرَم
هُمُ الأُسدُ عِندَ البَأسِ وَالحَشدُ في القِرى وَهُم عِندَ عَقدِ الجارِ يَوفون بِالذِمَم
فَكَم فيهِمُ مِن سَيِّدٍ مُتَوَسِّعٍ وَمِن فاعِلٍ لِلخَيرِ إِن هَمَّ أَو عَزَم
مَتى أَدَعُ في أَوسٍ وَعُثمانَ يَأتِني مَساعيرُ حَربٍ كُلُّهُم سادَةٌ دِعَم

ونستطيع من خلال هذه الأبيات السابقة تتبع الخيط الوراثي لدى الشاعر، والمتمثل في هذا الحس الفخري المفعم بكمٍّ هائل من مشاعر الاعتداد بالنفس، والقبيلة التي ينتمي إليها، فنراه يفتخر بقومه المزنيين ، فهم من بنوا له المجد، وهم أصحاب السطوة والبطولة والشجاعة، والكرم، في حين يضع خصمه أو منافسه، وقوم خصمه في صورة مخزية، فقد تلقوا هزيمة نكراء من المزنيين، ويمعن الشاعر في السخرية والاحتقار، بقوله : (هم أجلوا أباكَ عن الحرم) وهذا القول يجعل الخصم مناط للذلة والهوان ..

ثم يواصل تكراره للخصال العظيمة التي يتجلى بها قومه، وقد سبق قولها في بداية الأبيات، وهذا من باب التأكيد، وترسيخ هذه الخصال ... أما الأثر البيئي، فقد تمثل في الروح العصبية القبلية السائدة في هذه البيئة الصحراوية (البدوية) ، فسياسة القبيلة تفرض على أبنائها الدفاع عنها، والتضحية في سبيل رفع شأنها بين القبائل الأخرى .

أما العصر الإسلامي، فبيت جرير يمكن أن نعتبره نموذجاً يمكن من خلاله الكشف

عن الأثر الوراثي والبيئي، ونبدأ بجرير وقوله في هجاء آل المهلب : (43)

إن الخلافة لَم تُقدر لِيملكًها عبد" لأزدية في بظرها عقَفُ

كانوا إذَا جعلُوا في صيرهم بصلاً واستوثقُوا مالحاً من كَنعدٍ جَذفوا

وإذا نظرنا إلى هذين البيتين، نجد سمة روح التهكم، ولكنها روح تتسم بالفجاجة الصارخة، غير مبالية بالعُرف الاجتماعي المتمثل في العادات والتقاليد التي تحكم المجتمعات القبلية .

أما الأثر البيئي، فقد تمثل في تأييده لسياسة الدولة الأموية ، ومن ثم مهاجمته ل(يزيد بن المهلب – (ت102هـ) الذي دخل في صراع مع الأمويين .

ومثل هذه الروح التهكمية نجدها في قول بلال بن جرير: (44)

أَلَا إِنَّمَا الْعُكْلِيُّ كَلْبٌ فَقُلْ لَهُ إِذَا مَا اعْتَوَى إِخْسَأْ وَأَلْقِ لَهُ عَرْقَا

وإنِ تلق تيماً في الندى عُرفتها عَرفت الأُنوف الفُطسَ والأعين الزرقا

وتتراءي هنا سمة روح التهكم، فنجده يتهكم على شخص يُدعى العكلي، ويصفه بالكلب الكثير النباح، فإما أن تنهره ، وإما أن تلق له عَرقا ..رد على ذلك تشكيكه في عروبية(تيم) فهم من وجهة نظره، أصحاب أنوف فطس وأعين زرقا ..

أما الأثر البيئي ،فقد تمثل في العصبية القبلية، فقد كانت البيئة الأموية بيئة صالحة لكل أنواع الصراعات، ومنها الصراع القبلي وهو شكل من أشكال الصراع السياسي الذي كان سائدا في البيئة الأموية. (45)

وتظل الروح التهكمية قابعة في جينات هذا البيت، فنجد عمارة بن بلال بن جرير يقول: (46)

ترحّل فما بغداد دار إقامة،

ولا عند من يرجى ببغداد طائل

محلّ ملوك سمتهم في أديمهم، فكلهم من حلية المجد عاطل

وواضح هنا الأثر الوراثي المتمثل في تهكمه على خلفاء الدولة العباسية لأنهم من وجهة نظره لا يصلحون للملك ... أما الأثر البيئي ، فتمثل في خلافة السياسي مع العباسيين ، فهم كما يقول : قد استنزفوا ثروات بغداد ، وجعلوا أهلها في حالة من البؤس والشقاء.

وسنكتفي بهذه النصوص الشعرية القليلة لهذين البيتين من بيوتات الشعر ، فهم من الأمثلة الأكثر دلالة على ما نريد توضيحه، من تفاعل الأثر الوراثي مع الأثر البيئي، ويمكن أن نطلق عليه الأثر الثابت والأثر المتغير ...

ولعل (ابن قتيبة) هو دليلنا في ذلك، وقد أشرنا سابقاً إلى ما قاله عن اتصال الشعر في هذين البيتين بالتحديد، وهذا بالطبع لا يمنعنا من تعقب هذه الظاهرة في البيوتات الأخرى، ولكن سيطول بنا الأمر إذا أفضنا في الحديث عن كل هذه البيوتات..

وفي نهاية الأمر نستطيع أن نقول إن ظاهرة الإبداع الشعري ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالوراثة والبيئة .

الهوامش:

1- العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده : تحقيق د/ عبد الواحد شعلان ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ج2،د،ت، ص114-115 .

2- تاريخ التراث العربي : ترجمة /د. عزة مصطفى ، م. جامعة محمد بن سعود الإسلامية ، الرياض ج2،ج4، 1403هـ/1983،ص200-212.

3- الأسرة الشاعرة بين الوراثة والاكتساب : د. محمود جبر الربداوي، مجلة الدارة ، الرياض ، السنة (14) العدد(2) 1428هـ/2008م،ص236-253 .

و- معجم الشعراء العباسيين: د/عفيف عبد الرحمن ، دار صادر ، بيروت 1421هـ /2000م.

و- معجم الشعراء العباسيين من العصر الجاهلي حتى سنة 2005 م، وكامل الجبوري ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، 2006/1427م.

4- علم النفس الوراثي : على عبد الرحيم صالح ، دار صفاء للنشر والتوزيع ، عمان ، 1434هـ/12013م ، ص18-19.

5- المرجع نفسه : ص25.

6- المرجع نفسه ص20.

7- البيئة والمجتمع (مقدمة نقدية) : تأليف / بول روبنس وجون هينتز ، وسارة أ.مور, ترجمة / خالد مفتاح ، المركز القومي للترجمة والنشر ، القاهرة ، 1439 هـ / 2018 م ، ص 23 .

8- الإنسان والبيئة :دالسيد عبد العاطي السيد، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ، 1412هـ/ 1991م، ص233.

9- علم النفس الوراثي : ص 185.

10- المرجع نفسه : 186.

11- المرجع نفسه ص186.

12- المرجع نفسه ص 186.

13- see;Francis Galton Here ditary Genius AN Inquiry into its Laws and consequences, londan, Macmillan and- CO.and Newark .Secend Adiation 1892.

14- SAME REFERENCE; P199-225.

15- علم النفس الوراثي : ص 159.

16- التنبؤ الوراثي : د. زولت هارسيناي ، ريتشارد هنون ، ترجمة / د. مصطفي إبراهيم ، عالم المعرفة ، الكويت، العدد (130) ،1408هـ/ 1988م، ص232

17- علم النفس الوراثي ص 158.

18- علم الوراثة نحو تعريف جديد : د. أحمد شوقي، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، 2015/1436ص94.

19- تفسيرات وراثية المعقول واللامعقول : تحرير شيلدون كريمسكي ، وجيرمي غروبر ، ترجمة د/ ليلي الموسوب ، عالم المعرفة ، الكويت ، العدد(432)

ربيع الأول 1437هـ / يناير 2016م ، ص24.

20- الأسس النفسية للإبداع الفني في الشعر خاصة :د. مصطفي سويف ، دار المعارف ، القاهرة ، 1378هـ/ 1959م، ص302.

21- الوراثة والإنسان (أساسيات الوراثة البشرية والطبية) : د. محمد الربيعي ، عالم المعرفة، الكويت ، العدد (100) رجب 1404هـ /1986م ، ص162.

22- الأسس النفسية للإبداع الفني ص301.

23- الإبداع الإنساني موهبة أم وراثة : أحمد أبو الدهب محمود ، م . القافلة ، شركة أرامو، السعودية، العدد (9)، 1418هـ /1998م، ص40.

24- الأسرة الشاعرة بين الوراثة والاكتساب ص251.

25- جمهرة أنساب العرب : تحقيق / عبد السلام هارون ،دار المعارف، مصر، ط4، 1397هـ/ 1977م، ص207-208.

26- المصدر نفسه : ص480 - 483.

27- المصدر نفسه : ص 483-484.

28- طبقات فحول الشعراء : تحقيق / محمود محمد شاكر ، مطبعة المدني ، القاهرة، ج 1، 1394هـ / 1974م، ص40.

29- المصدر نفسه : ص110.

30- معجم الشعراء : تحقيق / عبد الستار فراج ، الهيئة العامة لقصور الثقافة ،القاهرة ، 1424هـ /2003م، ص346.

31- الأغاني: تحقيق / علي السباعي وزملاؤه، الهيئة العامة للكتاب ، القاهرة ، ج 10 ،

1393هـ، 1973 م ، ص 312 .
32- العمدة : ص 1114-1115.
33- المذاكرة في ألقاب الشعراء : تحقيق / شاكر العاشور ، دار رند للطباعة والنشر والتوزيع ، دمشق، ط3 ،1431هـ، 2010م ،ص 70.
34- الفهرست ، لابن النديم أبو الفرج محمد بن إسحاق ت 438هـ: تحقيق إبراهيم رمضان ، دار المعرفة، بيروت ، ج1، ط2، 1417 هـ ، 1997م ، ص 68 .
35- المؤتلف والمختلف : الحسن بن بشر الآمدي (ت 537هـ) ، تحقيق/ عبد الستار فراج ، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، 1381هـ/ 1961، ص8-9 .
36- ديوان الهذليين : الدار القومية للطباعة والنشر ، القاهرة ، 1385هـ/ 1965م.
37- طبقات فحول الشعراء .
38- مختلف القبائل : نشر / حمد الجاسر ، النادي الأدبي الرياض ، 1400هـ/ 1980م.
39- الموقف الأدبي : د. محمد غنيمي هلال ، دار العودة ، بيروت ، 1997م، ص199.
40- دراسة المستشرقين حول صحة الشعر الجاهلي : ترجمة /د. عبد الرحمن بدوي ، الهيئة المصرية العامة للكتاب 1436هـ/ 2015م ص214.
41- مجموع شعر أبي سلمى (ضمن كتاب شعراء مغمورون في الجاهلية والإسلام): جمع أشعارها وحققها / د. عبد المجيد الإسداوي، دار الأرقم ، الزقازيق 1415هـ /1994م،ص10-11.
42- شرح ديوان زهير بن أبي سلمى ، ثعلب (أبو العباس أحمد بن يحيي بن يسار (ت291هـ): تحقيق / عبد السلام هارون ، الهيئة العامة للكتاب ، القاهرة 1393هـ /1973م، ص179-180.
43- شرح ديوان كعب بن زهير ، أبو سعيد الحسن بن الحسين السكري : الدار القومية للطباعة والنشر ، القاهرة ، 1384هـ 1965م ، ص 67-69.
44- ديوان جرير ، شرح محمد بن حبيب ، تحقيق / د. نعمان محمد أمين طه ، دار المعارف القاهرة ط4،/1427هـ/ 2006م ، ص177.
45- مجموع شعر بلال بن جرير ضمن كتاب (شعراء مغمورون في الجاهلية والإسلام) : ص87.
46- العصبية القبلية وأثرها في الشعر الأموي د. إحسان عباس، دار اليقظة العربية، د. ط، د.ت، ص249-267.